



جئت إليك أهل من ينابيع حكمتك العظيمة، بتلك الكلمات ابتدأت كلامي مع شيخ مشايخ العلوم الإسلامية، كان يقرأ القرآن، أتم قراءته ومن ثم رفع نظره إلي فرأيت عيناً ثاقبة قوية تتمعنت بطريقة أدخلت القشعريرة إلى جسدي المتعطش للحكمة.

قال لي: أنت تبحث عن الحكمة، وللحكمة أبواب كثيرة، فأي الأبواب تنشد؟؟؛ شيخي الجليل أنا أبحث عن جوهر الدين بعد تطبيق أركانه الخمس، فابتسم لي وقال: يابني لن تجد ضالتك عندي، أصابني قوله بدهشة عظيمة بدت جليةً على وجهي، ابتسم مجدداً وقال: سوف تجد ضالتك عند من يطبق قوله - تعالى - : {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، أوّما لي بأن أغادر مجلسه. غادرت المجلس ولا زالت الدهشة باديةً على وجهي، وسألت نفسي: ما الحكمة من كلام الشيخ، مما دفعني للتفكير والبحث والتحقيق عن معنى الآية الكريمة، إنه معنى التسامح الذي رسخه سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - في أفعاله وأقواله وكان خير من طبق القرآن، كما قالت عنه السيدة عائشة - رضي الله عنها - : "كان خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القرآن" [رواه أحمد ومسلم]. وأدركت أن خير ما تبدأ فيه هو التسامح مع النفس، أي أن تكون متسامحاً مع ذاتك فلا ترهقها بحقد ولا ضغينة ولا حسد ولا كراهية، بل تزرع فيها المحبة والرحمة والرقة والمودة، عندها تصفو نفسك وتزكي وتصبح بإمكانها الانطلاق إلى العالم الرب ونشر رسالة التسامح، رسالة الإسلام التي أمرنا الله - عز وجل - بالدعوة لها بالحكمة والمواعظ الحسنة، قال - تعالى - : {إِذْ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَاءُوكُمْ بِالْأَقْرَبِ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: 125]، فلا إكراه في الدين، قال - تعالى - : {أَفَأَنَتُ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}، هذا هو الدين السمح الذي أمرنا الله - عز وجل - بالالتزام به، ولكن ما هو التسامح؟؟

في بعض الأحيان يكون مفهوماً صعباً، لذلك من المفيد في بعض الأحيان تعريف الأشياء بتضادها. عكس التسامح هو التعصب فإذا كنت غير متسامح فإنك بهذه الحالة ترفض الاختلاف وعندما ينشأ التمييز ضد الآخر، والتمييز يغذي روح الكراهية، والكرهية تولد العنف. يظن الكثير من الناس أن التسامح هو مفهوم سلبي، قالها بابتسامة عريضة بدت على وجه البروفسور الألماني الذي قابلته في جامعة برلين في رحلة بحثي عن ضالتي، قلت له: ولم ذاك، أخبرني بأن الفكرة السائدة هو أن المتسامح إنسان غير مبالي في الحياة ولا يتخذ أي موقف، وهذا فهم خاطئ للتسامح. إن أردت تعلم ثقافة التسامح

عليك أن تذهب لمكان آخر فلن تجدها هنا، قلت له: أرجوك أن تفيدي من خبرتك وأنت متخصص بثقافات الشعوب، قال لي: ستجد ما تبحث عن في جمهورية الصين الشعبية.

بالطبع لن أحذثكم عن مدى دهشتي، ولكنني التقطت هذه العبارات باهتمام شديد ووجدت نفسي على سفح جبال الهimalaya مع مرشد لي يتكلم اللغة العربية يقودني إلى قرية صغيرة جل بيوتها مصنوعة من الطين والخشب، قال لي: هنا ستجد ما تبحث عنه. دخلت إحدى هذه البيوت البسيطة ووجدت فيها رجلاً مسنًا يجلس على الأرض مبتسمًا كأنه يتوقع قدومي، جلست قبالتة مع مرشدِي، قال لي: انظر إلى الطبيعة، انظر إلى الجبال، الوديان، الأنهر، انظر إلى السماء، النجوم، القمر، الكواكب. قلت له: إنني أنظر إليها كل يوم!!! قال: وماذا تجد؟! انتظرت على اسمع الإجابة منه، فاستطرد قائلاً: ستجد التنوع، عليك أن تحترم ذلك التنوع.

طيلة فترة طريق العودة إلى وطني وأنا أفكر بمعنى كلام هذا الرجل المسن، وأقول لنفسي: هل قطعت آلاف الأميال لأسمع هذا الكلام!!!! وعندما نظرت مرة أخرى إلى السماء من نافذة الطائرة، شعرت بأنني أنظر إليها لأول مرة، لقد رأيت التنوع الذي يشكل أرضية التعاون والتكامل. فالحياة فيها الأبيض والأسود والرمادي وكل الألوان فلا تحلو الحياة بدون التنوع، قال تعالى - : {ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء}، فعليك أن تحترم ذلك وأن تقبل بوجود الآخر وأن تتقبل التنوع الموجود في مجتمعك، فمبداً "أنت إما معنا أو ضدنا" منبعه الجهل، وعدم احترام التنوع. إن كنت تعتقد أنك على الحق فلا تفرض تصورك على الآخرين، فالتحيز الأعمى للأفكار يقود إلى التحامل، ولا يفسح المجال للحوار البناء المبني على ثقافة التسامح والقبول بالآخر.

طبعاً كسر حاجز الخوف من الآخر يساعد بشكل كبير على تقبل التنوع الثقافي الاجتماعي، السياسي، والديني. والافتتاح على المعرفة والاطلاع على ثقافات الشعوب الأخرى يساهم بشكل كبير في فهم حكمة الله - عز وجل - في خلق هذا الكون بهذا التنوع العجيب.

ومما يساعد على نشر ثقافة التسامح المشاركة بالمناظرات والحوارات الثقافية والأدبية سواء الاجتماعية أو السياسية، أيضاً المشاركة في المجال التطوعي الإنساني من خلال الجمعيات والمؤسسات الخيرية.

إن سوريا المستقبل عليها أن تعزز مفهوم التسامح في المجتمع من خلال ترسیخ هذا المفهوم في المؤسسات التعليمية والثقافية والاجتماعية المختلفة، وأن تعزز مفهوم المواطنة من خلال تطبيق العدالة والمساواة بين أبناء المجتمع كافة بدون تمييز أو تهميش، سواء أكان على أساس عرقي أو ديني أو مذهبي أو سياسي....الخ. قال - تعالى - : {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتَيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة: 269].

عاشت سوريا حرّةً أبيّةً،،

المصادر: